

سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية

خامساً: وقفات بلاغية

ورد في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يحسن الوقوف عند بعضه تجلية للفظ وإيضاحا للمعنى، وقد ذكرت بعض الأوجه البلاغية فيما مضى وأذكر ما لم أذكره هناك:

١- قوله - تعالى - : ﴿ لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ ﴾^(١) [سورة الحجرات، الآية: ١].

قال القاسمي: في الآية تجوزان:

أحدهما^(٢) في "بين اليدين" فإن حقيقته ما بين العضوين، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال، قريبا منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما، فهو من المجاز المرسل.

ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء، ومتابعة لمن يلزم متابعتها، تصويرا لهجنته وشناعته، بصورة المحسوس كتقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره، فنقلت العبارة الأولى بما فيها من المجاز إلى ما ذكر، على ما عرف في أمثاله^(٣)

٢- قال الزمخشري: ورود الآية على النمط الذي وردت عليه، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات

إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله:

منها: مجيئها على النظم المسجل به، بالسفه، والجهل لما أقدموا عليه.

ومنها: لفظ "الحجرات" وإيقاعها، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها: المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم.

ومنها: التعريف باللام دون الإضافة^(٤).

٣- في قوله: ﴿ فَتَصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾^(٥) [سورة الحجرات، الآية: ٦] فائدتان:

١ - سورة الحجرات آية: ١.

٢ - لم يذكر إلا الأول.

٣ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٠٦، والكشاف ٣-٥٥٢.

٤ - انظر: الكشاف ٣-٥٥٨، وتفسير القاسم ١٥-١١٢.

٥ - سورة الحجرات آية: ٦.

إحداهما: تقرير التحذير وتأكيده، ووجهه أنه - تعالى - لما قال: ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ ﴾^(١) [سورة الحجرات، الآية: ٦] قال بعده، وليس ذلك مما لا يلتفت إليه، ولا يجوز للعاقل أن يقول: هب أني أصبت قوما، فماذا علي؟

بل عليكم منه الهم الدائم، والحزن المقيم، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه.

والثانية: مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يتلفتون إليها، بل تصبحون نَادِمِينَ عليها^(٢).

٤- قال أبو السعود في قوله - تعالى - : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾^(٣) [سورة الحجرات، الآية:

١١] القوم مختص بالرجال لأنهم القوام على النساء، وهو في الأصل إما جمع قائم، كصوم وزور في جمع صائم وزائر، أو مصدر نعت به فشاع في الجمع.

وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون، فإما للتغليب، أو لأنهن توابع.

واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجمع.

والتنكير: إما للتعميم، أو للقصد إلى فهي بعضهم عن سخرية بعض، لما أنها يجري بين بعض وبعض

(٤).

٥- قوله: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٥) [سورة الحجرات، الآية: ١١].

قال الشهاب:

و ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٦) على ظاهره، والتجوز في قوله: ﴿ تَلْمِزُوا ﴾^(٧) فهو مجاز ذكر فيه المسبب،

وأريد السبب، والمراد: لا ترتكبوا أمرا تعابون به. قال القاسمي: وضعف بأنه بعيد عن السياق، وغير

١ - سورة الحجرات آية: ٦.

٢ - انظر: تفسير الرازي ٢٧-١٢١، وتفسير القاسمي ١٥-١١٧.

٣ - سورة الحجرات آية: ١١.

٤ - انظر: تفسير أبي السعود ٥-١٧٧، وتفسير القاسمي ١٥-١٢٧.

٥ - سورة الحجرات آية: ١١.

٦ - سورة الحجرات آية: ١١.

٧ - سورة الحجرات آية: ١١.

مناسب لقوله: ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا ﴾ (ك) وكونه من التجوز في الإسناد، إذا أسند فيه ما للمسبب إلى السبب، تكلف ظاهر، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق لا يدفع كونه مخالفا للظاهر.

وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم، بالطعن على غيركم كما في الحديث: " من الكبائر أن يشتم الرجل والديه " (٢). إذا فسر بأنه إذا شتم والدي غيره، شتم الغير والديه - أيضا - (٣).

٦- قوله - تعالى - : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ (٤) [سورة الحجرات، الآية:

١٢] قال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: فمن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾

(ك) فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله كلحم

الأخ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله مَيْتًا، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة.

فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله.

فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يفتابه، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة.

وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، أمران بتركها، والبعد عنها، ولما كانت كذلك كانت بمنزلة لحم الأخ في كراهته.

ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون في مثل كراهة لحم أخيه،

فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة.

١ - سورة الحجرات آية: ١١.

٢ - أخرجه مسلم (١-٩٢) رقم (٩٠).

٣ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٨.

٤ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٨.

٥ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٢٨.

وأما ^(١) جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة، والشهوة لها، مع العلم بقبحها.

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهها، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من الدلالات الأربع التي أشرنا إليها، وجدتها مناسبة لما قصدت له ^(٢).

قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ ﴾ ^(٣) [سورة الحجرات، الآية: ١٥].

ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر؟

ولم يذكر المال.

قال الرازي: نقول: الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة، لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به - وقد يفتقر الغني فيبطل افتخاره - والحسن والسن، وذلك غير ثابت ولا دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له، فاختره الله للذكر، وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى، ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى، لأنه إذا سقط اعتبار الأعلى فسقوط اعتبار الأدنى أولى وهذا فيه من البلاغة ما فيه ^(٤).

قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ^(٥) [سورة الحجرات، الآية: ١٤] قيل:

مقتضى الظاهر أن يقول: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أو: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم، فعدل عنه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان، والجرم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً.

وقيل: إنه من الاحتباك+، وأصله: لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا، ولكن أسلمتم، فقولوا: أسلمنا، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر.

١ - يبدو أنه سقط من الطباعة ما يتعلق بالكناية عن لحم الميت، ولكنه واضح مما قبله ويعد.

٢ - انظر: تفسير القاسمي ١٥-١٣٤.

٣ - سورة الحجرات آية: ١٣.

٤ - انظر: تفسير الرازي ٢٧-١٣٧.

٥ - سورة الحجرات آية: ١٤.

والأول أبلغ، لأنهم ادعوا الإيمان فنفاه عنهم، ثم استدرك عليه فقال: دعوا ادعاء الإيمان، وادعوا الإسلام، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه، فنفى الإيمان، وأثبت لهم قول الإسلام، دون الاتصاف به ^(١) وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك، مع سلامته من الحذف بلا قرينة ^(٢).

١ - القول بأنهم لم يتصفوا به فيه نظر، فما دام قال لهم قولوا أسلمنا، فقد أثبت لهم، لكنه ليس هو الإيمان.

٢ - ذكره القاسمي في تفسيره ١٥-١٤٠، وقال: هذا ما في القاضي وحواشيه.